رحيل فضيلة "شيخ الهند" العلامة المحقق النابغة محمد عزير بن شمس الحق – رحمه الله تعالى

د. سعيد أحمد المُشَرَّفي الميواَتي*
almusharrafi96@hotmail.com

يوم السبت، الموافق ٢٠ ربيع الأول، من عام ١٤٤٤هـ.-(٢٠٢٢/١٠/١٥م)- لم يكن باليوم المعتاد، على الطلاب، وأهل العلم والحكمة، والدعاة والباحثين المحققين والكتَّاب، وبخا صة في شبه القارة الهندية؛ فقد فوجئت الأو ساط العلمية والشرعية والبحثية والدعوية والتاريخية واللغوية والثقافية إضافة إلى مجال الترجمة من وإلى العربية؛ برحيل فارس كل تلكم المجالات: ف ضيلة العلامة الفقيه المحدِّث (طالب الحرمين) الشيخ محمد عزير بن شمس الحق بن رضاء الله (الهندي)، المعروف ب . .(الشيخ عزير شمس) -عليه ر ضوان الله ورحمته-؛ وذلك مساء السبت (ليلةَ الأحد)، بُعيدَ أذان العشاء بمنزله بمكة المكرمة عن عمر ناهز خمسة و ستين عاما؛ بسبب توقف حركة القلب أثناء نهوضه من مجلسه للو ضوء؛ ا ستعدادًا لـ صلاة العـ شاء، بحـ ضور كوكبة من طلاب العلم و ضيوفه الكرام. وكانت وفاته -رحمه الله تعالى- فاجعة مفاجئة، و صدمة كبيرة جدا لفَّت وجوه الكثير بالحزن والكآبة والوجوم.

ويعتبر الشيخ -رحمه الله تعالى- حقًا من نوابغ الزمان ونوادره، واستقبله التاريخ من أو سع أبوابه. وقد تأثر برحيله كل من عرفه سواء عن كثب أو عن طريق آثاره العلمية. ومع أني لم ألتق بالـ شيخ إلا أحايين قليلة، بيدَ أن حبي له عن ظهر الغيب كان عظيما، وكنت -دائما- أنتـ شي فرحًا وافتخارًا واعتزازًا بـ شخ صه العظيم وأخلاقه النبيلة وأعماله العلمية التي تنحو منحى مو سوعيا

---

* أ ستاذ م ساعد، كلية الدرا سات الإ سلامية واللغة العربية، جامعة جُميرا، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

من طراز فريد ور صين، وكنت أتخيله □رحمه الله- مظلةً ذات ظل ظليل، تـ ستظلها الثقافة العربية والإ سلامية في الهند وخارج الهند كذلك؛ وجدارا ذ ستند إليه في الخطوب والمدلهمّات...؛ فغ شي خاطري من يم الحزن والأ سف والحـ سرة ما غ شيه، خا صة لأن أملي فيه كان كبيرا جدا، بأن الله سبحانه وتعالى سوف يـ صلح على يديه من شؤون بعض فئام المـ سلمين، وجمعياتهم ومدارسهم وكلياتهم في الهند إصلاحًا جذريًّا...الخ، ولكن:

يُريدُ المَرءُ أنْ يُؤتَى مُنَاه ❖ وَيَأبَـــى اللهُ إِلَّا مَـا يَشَـــــــاءُ

ولم أستطع التخفف من وطأة هذا الحزن الجاثم على صدري وآثاره إلا عبر هذه الأبيات المعدودات في هذه القـ صيدة المتوا ضعة، التي سعيت فيها إلى البوح عن بعض عواطفي وخلجات نفسي تجاه الشيخ رحمه الله تعالى، مشيرا أو ملمِّحا إلى بعض مناقبه الجمة وشمائله العطرة، والخسارة الفادحة التي خلفها الراحل من ورائه؛ لألتمس في ذلك نوعَ عزاءٍ لتليم نفـ سي، ومتاعَ سلوان لكـ سير خاطري، مع الاعتذار مـ سبقًا بأن هذه الأبيات لا تجاوز نوعًا من التطفل، والتلويح بـ سراجٍ أمامَ شمسٍ وهّاجٍ، ليس إلا! ولكنها -بكل حال- عواطفي، التي استعصت على التصبر والكتمان.

وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ! وَلَا حَولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ! اللَّهُمَّ أْجُرْنَا فِي مُصِيبَتِنَا وَاخْلُفْ لَنَا خَيرًا مِنهَا.

... وَبَانَ حَطِيمُ الكَعْبَةِ

أَلَا، مَـا لِشمْسٍ، قَـدْ عَلَاهَا طُسُـومُهَا؟[1] وفي أيِّ خَطْـبٍ فِي النُّجُومِ وُجُومُهَا؟!

(١) الطسوم: الغبار.

عَـلَى أيِّ بَـلْوَى عَـادَ فِيْـهِـنَّ حَـيْـرةٌ؟! أُفُـولٌ يُـرَى تَتْـرَى، ولَيْـسَ قُـدُومُـهَا![٢]
لِمَاذَا جِبَـالُ الأَرْضِ دَارَتْ عَـوَاهِـنًا؟ كَأَنَّ رَوَاسِيْ الطَّـودِ حُلَّتْ رُسُـومُها![٣]
أَهَـا! ذَا الَّـذِي قَـدْ هُـزَّ مِنْـهُ وُجُـودُنَـا عَلَى وَجْـهِ غبْـراءٍ وهَـاجَـتْ هَـجُومُها![٤]
وَيُكْسَـى شُحُـوبًا وَجْـهُ كُـلِّ مَـدِيْـنَةٍ فَـلَا الأَرْضُ أَرْضٌ، لَا الأَدِيْـمُ أَدِيْـمُها!؟
وَبِـالنَّـاسِ لَـمٌّ حِيْـنَ دَارَت بِـرُوحِـهَا[٥] رَحَـى الحُزْنِ وَالآفَـاتِ، تُـدْمَى كُلُومُها!
تَـرَاهُم حَيَارَى بَـل سُـكَارَى وَمَـا دَرَوا مِنَ السُّكْرِ شَيْئًا قطُّ، -جَـلَّ كَرِيْـمُهَا!-
نَجِـيًّا بُكِـيًّا فِـي سُـهَـادٍ وَحُرْقَـةٍ كَـأَنَّ عُيُـونًا لِلجُـفُـونِ خَصِيْـمُها!
تَجَـافَى جُنُـوبٌ عَـن مَضَـاجِعِ رَاحَةٍ فَفِي حَشْوِهَا جَمْرٌ وَشَبَّ ضَـرِيْـمُها!
فَمَـاذَا دَهَـا الدُّنْيَـا وَصَـابَ بِقُـرِّهِ وَصُبَّتْ بَـلَايَا كَيْ تَغُـورَ نُجُـومُها؟
فَرُحْمَـاكَ، يا ربِّـي! وسَلِّمْ هَـوَاجِسِي! وَلَـمْلِمْ شَتَـاتَ النَّفْسِ؛ طَمَّتْ هُمُومُها!
فُـؤَادٌ بِـها، يَهْـوِيْ مَخَـافَةَ مَـا نَـمَا لِأَسْـمَاعِها؛ مِنْـه يُـهَـاضُ صَمِـيْـمُها![٦]
تَـنَـاهَـى لِأَسْمَاعِي بأنْ "شَمْسُ" مَكَّـةٍ وَمِصْـبَاحُهَا الوَهَّـاجُ – كُـنَّا نَشُـومُها؛
"عُـزَيْـرًا" تَـوَارَى بِالحِجَـابِ مُسَـارِعًا إِلَـى رَبِّ جَـنَّاتٍ، وَفِـيْهَـا رَنِـيْـمُهَا[٧]
تَصَامَمْتُ، وَالآذَانُ مِـنِّي مُصِيْخَةٌ وَأُلْهِـيْ السُّوَيـدَا وَالسُّوَيدَا سَلِيمُها![٨]
وَأُغْـمِضُ عَيْـنِي؛ لا أشَـاهِـدُ رُفْقَـةً أَصَـابِعُهُمْ تُومِـيْ؛ وَيُنْعَى عَظِيْـمُها![٩]
وَظَلْتُ[١٠] أمنِّيْ جُلْـجُـلَانًا قَـدْ هَـوَى لِظُفْرٍ مِـنَ المُكَّـاءِ، يَدْنُـو ظَلِيْمُـهَا![١١]

(٢) فقد توفي في السـنوات القليلة الماضـية عددٌ لا يسـتهان به من جلّة العلماء ممن كانوا يعتبرون حراسًـا على العقيدة وأمناء على المنهج والفكر القويم المستنير.
(٣) الرسوم: الأوتاد والحبال.
(٤) الهَجوم: الريح العاصفة التي تقتلع الأشجار.
(٥) لَمّ: نوع من المسّ.
(٦) يهاض: يُدقّ.
(٧) الرنيم: الاشتياق والطرب.
(٨) السويدا: أي السوداء، بمعنى القلب. السليم: اللديغ.
(٩) تومي: أي: تومئُ.
(١٠) ظَلْتُ: أي ظللتُ على غرار قوله سبحانه: (فظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ).
(١١) المُكَّاء: نوع من الطيور، والظليم: القبر.

وَمَا اسْتَيقَنَتْ نَفْسٌ غَيَابَ "عُزَيرِنا" وَفِي حِضْنِ "مَعْلَاةٍ" يُوَارَى سَدِيْمُهَا[١٢]
أَرَبِّيْ! أمَا أَنْبَأْتَنَا عَبْرَ أحْمَدٍ بِأَنْ شَمْسُ دُنْيَانَا بِإِذْنِكَ يَومُها؟
تَسِيْرُبِهَا الأَفْلَاكُ عَبْرَ مَنَازِلٍ فَتَسْجُدُ تَحْتَ العَرْشِ حَتَّى تُقِيْمُهَا؟[١٣]
فَهَلَّا أذِنْتَا[١٤] كَيْ يَعُودَ "شُمَيْسُنا" لِدُنْيَا عُلُومٍ فِي السَّوَادِ صَرِيْمُهَا؟![١٥]
وَأطْبَقَتِ التَّحْقِيْقَ دُجْنَةُ غَيْهَبٍ وَمُسَّتْ يُبَاسًا فِي ثَرَاهَا أرُومُهَا!
وبَاتَتْ عُيُونُ العِلْمِ قَرْحَى تَفَجُّعًا مَشَايِخُ مِ الأَسْلَافِ غِيْضَ نَظِيْمُها![١٦]
عُفَاةٌ لَهُ، يَا رَبِّ، نَهْبٌ مُقَسَّمٌ تَرُوعُهُمُ أحْزَانُ يُتْمٍ عَرِيْمُهَا![١٧]
"بَنَارِسُ أسْلَافٍ" تَرِنُّ مَنَاحَةً نَشِيْجًا فَقَدْ أفْضَى سَرِيعًا "رقِيْمُها"![١٨]
وَبِالمِلَّةِ البَيْضَاءِ فِي "الشَّرْقِ" حَيْرَةٌ كَلَيْلٍ غَسِيْقٍ لَفَّ رَكْبًا قُتُومُهَا
وَكَانُوا إِلَى عُلْيَا سَمَاءٍ سَكِيْنَةً لوَ انَّ[١٩] حِيَاضَ الدِّيْنِ رِيْمَ حَرِيْمُها
وَقَدْ رِيعَ أَهْلُ الهَذْرِ مِنْهُ بِرَهْبَةٍ[٢٠] وَلَمْ يَبْرَحِ "الأمَّ الرَّؤُومَ" فَطِيْمُهَا[٢١]
يَخِرُّونَ صَرْعَى بَيْنَ أَيْدِي طَوَارِقٍ صَنِيْعَ "عَصَا" سِحْرٍ رَمَاهَا كَلِيمُهَا[٢٢]

(١٢) السديم: الكثير الذكر. أيضًا ذكر فضيلة الشيخ الدكتور وصي الله عباس -حفظه الله ورعاه- أن الراحل كان، قبل يومين من وفاته، يمرّ من جوار مقبرة المعلاة، ومعه أهله، فنظر إليها، وتمنى أن يكون من أهلها. رحمه الله رحمة واسعة.

(١٣) حتى تُقيمُها: حتى هنا ابتدائية، وهي لا تنصب إذا كان زمان المضارع حالا.

(١٤) أذِنْتَا: أي أذنتَ.

(١٥) الصريم: النهار.

(١٦) المشايخ: جمع مشيخة، النظيم: الغدير، والمنهل.

(١٧) العريم: الشديد، المصيبة.

(١٨) بنارس الأسلاف: أي الجامعة السلفية بمدينة بنارس، التي درس فيها الشيخ قبل التحاقه بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(١٩) لوَ انَّ: بفتح الواو وتخفيف الهمزة.

(٢٠) أهل الهذر: بعض قليل العلم وكليل الفقه.

(٢١) الأم الرؤوم: الجامعة السلفية، بنارس.

(٢٢) الطوارق: الأفكار الجديدة البديعة.

وَلَـمَّا بَلَغْتَ السَّـعْيَ صُحْبَةَ "أَحْمَدٍ"[٢٣] قَـوَاعِـدَ تُعْـلِي، ذُو بَنَـاهَا "حَـلِيْـمُـهَا"[٢٤]

وَأَذَّنْـتَ مِـنْ بَـيْـن الأَوَادِبِ لاحِـنًا[٢٥] إِلَـى مَأْدُبِ الأَسْـلَافِ، طِرْفٌ طُعُومُهَا[٢٦]

وَغَـنَّتْ عَصَـافِيْرُ الجِـنَانِ بِنَشْـوَةٍ يُـؤَوِّبُ مَـعْـهَـا مِ الجِـبَـالِ جَـمِيْـمُهَا[٢٧]

إِذَا هُـمْ "بِـرُؤْيَـا" فِـي المَنَـامِ فَـظِيْـعَـةٍ تَـرَاءَتْ لَـهُـمْ، آهٍ! وَأَنْـتَ أَمِـيْـمُـهَـا[٢٨]

نَـجَـا مِ الـمَـنَـايَـا إِسْمَعِيْـلُ[٢٩] بِفِدْيَةٍ لِيُـرْزَقَ مَـدًّا فِـي الحَـيَـاة لَقِيْـمُهَا[٣٠]

وَتَـبْـقَى يَـتَـامَى الـدُّرِّ نَبْـعًا لِـبَهْـجَـةٍ فَـمَا أَكْـسَـفَ الدُّنْـيَا، تَسَـاقَـطُ تُـومُـهَا[٣١]

فَـأَمْسَى حَـرَامًا أَنْ يُـضَـحَّى بِفِـلْـذَةٍ لِـحَـوَّا، بُغَـاثًا كَـانَ أَمْ هُـوَ سَهُومُهَا[٣٢]

وَلَـوْ كَـانَت الجَـنَّـاتُ نِـيْـلَـتْ بِـولْدَةٍ فَـهَـلْ كَـانَ يَحْيَى مِ البَنِـيْنَ دَرِيْـمُـهَا؟:[٣٣]

عُـزَيْـرٌ، وَلَا شَـيْـخُ الـمَـشَـائِخِ أَحْـمَـدٌ[٣٤] وَلَا قَـبْـلَهُ شَـيْـخُ الحَـنَـابِلِ، سِـيْـمُهَا[٣٥]

---

(٢٣) أحمد: شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية رحمه الله.

(٢٤) ذو: بمعنى التي، حسب لغة قبيلة طيء. الحليم: (فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ)

(٢٥) الأوادب: جمع آدبة، وهو الداعي إلى مأدبة الطعام بكثرة.

(٢٦) الطِرْف: البديع والأصيل.

(٢٧) الجميم: المعْظَم.

(٢٨) كرؤية إبراهيم عليه السلام في منامه. الأميم: أي المقصود والمستهدف.

(٢٩) إِسْمَعِيل: بدون ألف، بعد الميم.

(٣٠) لقيم المنايا: كل إنسان. والمراد به هنا الشيخ الراحل، رحمه الله تعالى.

(٣١) التوم: جمع تومة، وهي اللؤلؤة.

(٣٢) حوّا: جدتنا عليها السلام، البغاث: ضعاف الطيور، السّهوم: العقاب الطائر في جو السماء.

(٣٣) الدريم: الولد الفُرهد الناعم الذكي.

(٣٤) شيخ المشائخ: شيخ الإسلام ابن تيمية.

(٣٥) شيخ الحنابل: إمام أهل السنة أحمد بن حنبل الشيباني رحمه الله. السيم: السيمة: العلامة المميزة والفارقة.

وَلَا غَالِبٌ[٣٦]، حَالِيْ[٣٧]، وَلَا ذُو تَنَبُّإٍ[٣٨] وَلَا فَيْلَسُوفٌ، بِالمَعَرَّةِ خِيمُهَا[٣٩]
وَلَا الشَّافِعِيُّ[٤٠]، وَالبُخَارِيُّ[٤١] صِنْوُه وَلَا بُلْبُلُ الإِسْلَامِ، لِلهِنْدِ تُومُهَا[٤٢]

(٣٦) ميرزا أسد الله بيك، (1797-١٨٦٩)، الشاعر الألمعي باللغتين الأردية والفارسية. اشتهر بالاسم القلمي (المستعار) "غالب" على عادة الشعراء في شبه القارة الهندية. وهو آخر الشعراء العظام في عهد الإمبراطورية الإسلامية المغولية.

(٣٧) حالي: شمس العلماء ألطاف حسين، الملقب بـ"حالي"، (1837-١٩٤١) ذو مكانة مرموقة في آداب اللغة الأردية، وقد سعى إلى تطوير هذه اللغة من خلال تطوير فن الشعر. اهتم بالشعر العربي والفارسي أيضًا. يتميز شعره بالالتزام والغيرة الشديدة على الإسلام وأهله. **وهو الذي اختار الراحلُ –رحمه الله- شعره لدراسة تأثير اللغة العربية فيه؛ لينال بذلك "درجة العالمية" (الماجستير) من قسم الأدب والبلاغة بكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينةالمنورة.**

(٣٨) ذو تنبأ: الشاعر العبقري أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، (٣٠٣-٣٥٤)، شاعر العرب وحكيمها، ومفخرة اللغة العربية، حاز مكانة سامية لم تُتح مثلها لغيره بعد الإسلام، وهو نادرة زمانه، وأعجوبة عصره؛ قال الشعر صبيًا، واشتُهِرَ بحدة الذكاء وسرعة البديهة.

(٣٩) شيخ المعرة: أبو العلاء أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الله اَلْقُضَاعِي المعري (٣٦٣-٤٤٩). مُفكِّر وأديب وفيلسوف، وأحد أعظم شُعراء العرب والعربيَّة على الإطلاق. وقد تعدَّدت آراء الباحثين حيال إيمان أو إلحاد أبي العلاء. وقد دافع العديد من العلماء عنه بأنَّهُ كان سليم العقيدة، ومن أبرزهم: الحافظ السلَفي، والإمام الذهبي، وابن الوردي، ومحمود شاكر وعبد العزيز الميمني وبنت الشاطئ، وغيرهم. خيمها: سادتها.

(٤٠) الشافعي: الإمام محمد بن إدريس (١٥٠-204).

(٤١) البخاري: أمير المؤمنين في الحديث محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦).

(٤٢) بُلبُل الإسلام: الشاعر الفيلسوف العبقري العلامة محمد إقبال بن الشيخ نور محمد، (1877-١٩٣٨)، الملقب بشاعر الإسلام، وهو حقا لؤلؤة الإسلام وجوهرة الهند ومفخرة المسلمين. يعود نسبه إلى أسرة برهمية الديانية؛ وقد اعتنقت الإسلام في القرن (١٥) الميلادي، حصل على الدكتواره من ألمانيا. وهو الذي نادى بضرورة تأسيس دولة مستقلة للمسلمين، باسم باكستان.

عَلِيٌّ[٤٣]، وَلَا ظَفَرٌ[٤٤]، وَلَا نَجْلُ شَاكِرٍ[٤٥] وَلَا الـرَّ افِعِيُّ[٤٦]، المَيْمَنِيُّ كَتُومُهَا[٤٧]

وَلَا حَظِيَتْ هِنْدٌ بِالمَسِيْحِ مُحَرِّرًا أَتَاهَا -رَسُولًا مِ الحِجَازِ- زَعِيْمُهَا[٤٨]

فَلَو لَا فِدَاءٌ، رَاحَ كُلٌّ تَزَلُّفًا وَمَا زَانَ ذِي الأَكْوَانَ إِلَّا رُخُومُهَا[٤٩]

وَإِلَّا؛ تَامَّلْ؛ كَيْفَ بَاتَ مُرَنَّقًا نَشِيْدُ حَيَاةٍ؛ إِذْ تَلَاشَى زَمِيْمُهَا[٥٠]

فَآهٍ! مِنَ المَكتُوبِ قَدْرًا مُؤَجَّلا! وَهَلْ يُدْرِكُ الأسرَارَ إِلَّا حَكِيْمُهَا؟

---

(٤٣) عليٌّ: العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي (١٩١٤-١٩٩٩)، أديب ومفكر وداعية إسلامي كبير، من أماجد شبه القارة الهندية ومفاخرها العظيمة. قاد جامعة ندوة العلماء بلكناؤ، لفترة طويلة، وهو مؤسس رابطة الأدب الإسلامي، ومؤلف عدد كبير من الكتب القيمة، وحاز بالعضوية في العديد من المؤسسات والمراكز العلمية والفكرية والثقافية العالمية، وقد تم تكريمه –رحمه الله- بعدة جوائز كبرى عالمية ومحلية اعترافا بجهوده في مختلف المجالات.

(٤٤) ظفر خان: هو العلامة الجهبذ والشاعر الأديب المناضل الشيخ ظفر علي خان (١٨٧٣-١٩٥٦)، أمير اللسان والقلم، ونصير العقيدة الصحيحة والمنهج المستقيم. وهو كاتب وشاعر ومترجم وصحافي كبير، أدى دورًا كبيرا في استقلال الهند، وكان على دراية جيدة بأحدث نظريات الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة، ويُعتبر عمومًا "أبو الصحافة الأردية."

(٤٥) نجل شاكر: هو فخر العروبة والأديب الكبير والمؤرخ الألمعي العلامة محمود محمد شاكر (١٩٠٩-١٩٩٧).

(٤٦) الرافعي: الأديب من طراز فريد العلامة مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠-١٩٣٧).

(٤٧) الميمني: الإمام العلامة عبدالعزيز بن عبد الكريم بن يعقوب الميمني الراجكوتي، (١٨٨٨ - ١٩٧٨)، حجة العروبة وجوهرتها في شبه القارة الهندية، وأديب كبير وشاعر ولغوي نحرير، ذو معرفة وخبرة واسعة بالمخطوطات العربية والإسلامية. الكتوم: الأمين.

(٤٨) هو العالم الألمعي والسياسي العبقري، حجة الإسلام، وإمام الهند، محيي الدين أحمد بن الشيخ خير الدين، المعروف بأبو الكلام آزاد، (ولد بمكة المكرمة عام ١٨٨٨م، وتوفي بالهند عام ١٩٥٨م.) غادرَ إلى الهند صغيرا؛ فقاد حركة استقلالها بنجاح، رئيسا لحزب المؤتمر أو عضوا رئيسيا فيه، كنى ولقَّب نفسه بـــــ"أبو الكلام آزاد"؛ لكونه خطيباً بارعاً. وقد تحرر من بعض العقائد العائلية الفاسدة إلى العقائد الصافية، حتى لقب بابن تيمية الهند. وكان أذكى خلق الله في تلك الديار وأكثرهم فقها وأمثلهم رشدا، وأحرصهم على مصلحة المسلمين، وأصدقهم فراسة وقراءة للمستقبل؛ كان بعض زملائه في السياسة يلاطفونه بالقول: "وُلد الشيخ أبو الكلام وعمرُه أربعون سنة." واجهَ تشويها ممنهجًا من قبل الاحتلال وعملائه من بني جلدته؛ لكي يتم إسقاطه من عيون المسلمين. كان أول وزير للتعليم في الهند بعد الاستقلال. أصدر العديد من المجلات بأسلوب بديع وأخاذ ومنقطع النظير في ذلك العصر وهو ما زال في سن المراهقة، وألّف كتبا قيمة في مختلف العلوم والفنون، وأبدع في تحديد شخصية "ذي القرنين". لقد كان أمةً قانتًا لله حنيفًا.

(٤٩) الرخوم: ضعاف الطيور غير المرغوب فيها.

(٥٠) الزميم: التغريد أو صوت العصفور.

أَجَـلْ؛ إنَّــهُ أَجْــلٌ، كِـــتَابًا مُـؤَقَّـتًا ... لِـكُـلِّ البَـــرَ ايا، إذ بَـرَاها عَلِيْـمُها!
بِطَيْـبَـةَ رَسْــمٌ لَـنْ يُنَسَّى لِــرَاحِـلٍ ... بِكُلِّـيَّــةِ الآدَابِ؛ "فَــهْوَ فَخِيْمُهَا![٥١]
تَـخَـيَّـــرَهَـا دَرًّا؛ فَــثَــرَّتْ بِـــدَرِّهَـا ... كَتَسْنِيمِ أَهْلِ القُرْبِ؛ وَهْـوَ نَـهِـيْـمُهَا[٥٢]
وَبَـزَّ بِـهَا الأَقْـــرَانَ، يَـفْــرِيْ دِلَاءَه ... مِـلَاءً، فَـعَـادَتْ بِالعُـطُـونِ قُـرُومُـها![٥٣]
وَللَّـــهِ عَـقْـلٌ![٥٤] إذ أَرَاهُ صِـرَاطَـهُ ... سَوِيًّـا: "لُغَاتِ الضَّادِ" نِعْمَ زَلِـيْـمُها[٥٥]
لِسَـانٌ يَـــزِيْـدُ المَـرْأَ عَـقْـلاً مُـرُوءَةً ... وَلِلْعُـــرْبِ دِيْـوَانٌ وفِـيْـهِ علُـــومُـهَا
وَلِلشَّـــرْعِ مِفْـــتَاحٌ وَلِلْفِـكْـرِ آلَـــةٌ ... وَلِلسُّـــنَّةِ الغَـــرَّاءِ حَتْـمًا "يَسُـومُها"[٥٦]
فَـأَلْقَـى لَـهُ جُـلُّ العُلُـومِ قِـيَادَهَا ... يُـدِيْـــرُنَـوَاصِيْـهَا؛ إلَيْـه خَـطِيمُـهَا
وَفِيهَا اسْتَوَى عَرْشَ العُلُومِ سَلَاسَةً ... -كَشَـأنِ سُلَيمَـــانٍ- فَـبَـانَ بَـهِـيْـمُهَا
فَتَـجْـــرِيْ يَـرَاعٌ فِـيْ "رُخَـاءٍ" بِأَمْـرِه ... وَتُمْسِي لَـهُ طَـوعَ اليَـمِيْـنِ هَنُومُها[٥٧]
فَشَادَتْ مَحَـارِيْـبَ العُلُـومِ وَلَـم تَـزِغْ ... وَصَـــاغَ تَمَـاثِيْـلَ المَـكَارِمِ كِـيْـمُها[٥٨]
فَمَا لِابْـنَـةِ العَدْنَانِ[٥٩] حَيْرَى كَـئِيْـبَـةً؟! ... بَـلَـى؛ إذْ تَـوَلَّـى حِـبُّـهَا وَغَـرِيمُـهَا!
عَـزَاؤُكِ، هـذَا اليَوْمَ، أُمَّـــةَ أَحْـمَـدٍ ... نَـفَـائِسُ بِـكْـرُ الفِكْـرِ فِيْها ضَمِيْمُهَا![٦٠]
وَنَظَّامُـــهَا: قِـرْنُ الثُّـرَيَّـــا "عُـزَيْـرُنَا" ... فَـيَسْـمُو إذَا تَسْـمُو، وَلَا مَـنْ يَـرُومُها!
وَيَعْـــلُو مَـــقَامًا، لكِـنِ القُـرْبَ دَأْبُـهُ ... كَبَـــدْرٍ عَـلَا الرُّكْبَـانَ وَهْوَ نَدِيْـــمُها!
جَـرَتْ سُـنَّـةُ الدُّنْـيَا بِأَنَّ عِـطَـاشَـهَا ... بِـهِم لَـــهْـفَـــةُ المَـــوتَـى لِبِئْرٍ تَرُومُها

(٥١) كلية الآداب: هي كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
(٥٢) (وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ* عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا المقربون).
(٥٣) العطون: المراد هنا: الشبع، والقروم: السادة.
(٥٤) التعجب من فقه الشـيخ -رحمه الله تعالى- واهتدائه إلى طريقة مثلى تسـاعده على التمكن من العلوم العربية والإسلامية، والفضل في ذلك كله لله سبحانه وتعالى الذي رزقه ذلك الفهم الثاقب والفقه الأصيل.
(٥٥) الزليم: السهم، أُجيدت صنعته.
(٥٦) يسوم: اسم جبل.
(٥٧) الهَنوم، أي بنو هنّام، وهي قبيلة من الجن، على ما يعتقدون، والكلمة في الأصل بتشديد النون متبوعةً بألف.
(٥٨) الكيم: الصاحب، بلهجة حِمْيَر.
(٥٩) ابنة عدنان: اللغة العربية.
(٦٠) النفائس: ما سطرته يراعه رحمه الله، الضميم: المحتوى.

وَلكِنْ بِـ"شَيـخِ الهِنـدِ" كَانَتْ سَجِيَّةٌ ... فَقَطْ لِذَوِي نُبْلٍ أَصِيْلٍ قُحُـومُـهَا:(٦١)

لَـقَـدْ كَـانَ أَنْـهَـارًا تُـوَ افـيْ ذَوِي الرَّجَا ... كَأَنَّ بِـه الظَّمْـــآنَ؛ فَهْوَ سَهِيْـمُها(٦٢)

يُجِـــلُّ ذَوِي إِرْثِ الـرَّسُـولِ سَمَاحَةً ... وَيُـرْقِيْـهِمُ الأَجْـفَـانَ؛ فَهْـوَ مَتِيْمُها(٦٣)

يَـزُورُ"أُولِيْ أَمْـرٍ"(٦٤)؛ يُلَائِـمُ صَدْعَـهَا ... وَرَتْـقًا لِفَـتْـقٍ فِـيْ رُؤَاهُـم يَـرِيْـمُـهَا

وَعَـــاشَ نَصُـــوحًا، رَاحِـمًا، فِي تَبَتُّلٍ ... فَجَمْعِـيَّـةُ الأَسْـلَافِ هـذَا حَكِيْـمُـهَا

بِطَابَـــةَ ذِكْـرَى مِـنْ "عُـزَيرٍ" عَـدِيـدَةٌ ... تَقَاسَمُـهَا الأصْحَـابُ أَيْضًا دُهُومُها(٦٥)

يُـــهِلُّ عَـــلَـيهِمْ كَالـهِـــلَالِ وَعِيْـــدِه ... عَشِـيَّةَ سَـلْخٍ شُـــدَّ عَـنْـهُم بَـرِيْـمُـها(٦٦)

وَيَلـــوِيْ وَيَلْـوُونَ الـــرُّؤُوسَ تَـوَادُعًـــا ... وَفِـيهِـم حَنِينُ الـرِّيْـمِ بَانَ بَـغُـومُـهَـا(٦٧)

عَـرَارًا، بِنَجْدٍ، غِبَّ غَـيْـثٍ صَبِيْـحَةً(٦٨) ... يَفُـــوحُ عَبِيْـــرًا فِـي رُبَـاهَا نَسِيْـمُهَا...،

وَيَـا سِـحْـرَ أَمْسَـاءِ "الأَوَدّ"(٦٩) أَصَـائِـلًا ... فَـيَـخْلِبُ رُوْحًـا بِـالـــرَّوَاحِ شَـبِـيْمُها(٧٠)

فَبِاللهِ، هَل أَنْتُمْ "سَـرَائِرُ" "شَيـخِنَا" ... بُلِيْـــنَ إِذَا "تُبْـلَى" يَفُـوحُ شَـمِيْمُها؟

---

(٦١) القحوم: الاقتحام والاستحقاق.

(٦٢) السهيم: الشريك، أي في البحث عن الماء والسعي في ابتغائه.

(٦٣) ذوي إرث الرسـول صـلى الله عليه وسـلم: هم العلماء وبخاصـة الطلاب، الذين كان يعاملهم الشـيخ معاملة خاصـة، كلها مفعمة بمشـاعر اللطف والكرم والمحبة الخالصـة في الله عز وجل؛ فكان -رحمه الله تعالى- يقدم للطلاب –خاصـة الوافدين منهم- خدمات متنوعة، حتى أنه كان لا يتردد في توصـيلهم بسـيارته إلى الوجهة التي يريدونها، ويقول لهم إذا أرادوا الاعتذار أو التمنع: إني أريد أن أدخل عليكم -وعلى نفسـي- السـعادة والفرحة والسرور بتقديم هذه الخدمة اليسيرة لكم؛ كما كنت أفرح وأسعد حين كان أحد من العلماء أو أساتذتي يسدي إليّ معروفا أيام الدراسة، فأنا اليوم أريد أن أعاملكم بالمثل؛ لكي أفرح وتفرحوا. المَتِيم من التيْم، بمعنى المحبوب.

(٦٤) أولو أمر: العلماء.

(٦٥) الدهوم: عدد كبير من الناس. وهي في الأصل: السـواد، والزرع إذا اخضـرَّ بشـدة يوصـف بالدهام، كما في قوله تعالى: (مُدْهَامَّتانِ)، وهذه الكلمة في القصـيدة تشـير أيضًـا إلى بعض مزارع المدينة المنورة التي كان بعض معارف الشيخ من طلاب الجامعة الإسلامية يستقبلونه هناك ويجتمعون به ويعقدون برامج علمية متنوعة بمناسبة زيارته لطابة الطيبة، حرسها الله وأهلها.

(٦٦) السلخ: اليوم الأخير من كل شهر. البريم: الصباح.

(٦٧) البغوم: الفصيل، الريم: كناية عن شدة الشوق والحنين.

(٦٨) عرارًا: أي يا عرارا. والعرار: نوع من النبات في ربا نجد، ذو رائحة زكية، الغِبّ: الإثْر.

(٦٩) الأودّ: مدينة "أَوَدهـ"، بالهند، معروفة بجمال مساءاتها الساحرة المنعشة واللطيفة الخلابة.

(٧٠) الشميم: النسيم البارد.

أُرَى أنْ لِسَانُ الصِدْقِ بُشْراكَ عَاجِلًا ... وَذِكْـرَى جَمِيـلٍ عِنْدَ خَلْقٍ عَمِيمُها![٧١]

تُشَـامُ عَلَيْـكَ مِ "الرَّسُـولِ" شَـمَائِلٌ ... تَـزِيْـنُ بِـهَا نَفْسًا؛ فَتَـهْمِي سُـجُـومُها!

وَأَضْحَتْ عِمادُ الدِّينِ[٧٢] مَهْوَى فُؤَادِه: ... فَسَعيٌ، طَـوَافٌ، زَمْـزَمٌ، وَمَـقَامُهَا

وَعَـاشَ رَبِيْـبًا لِـ"الإمَـامِ" وفِـكْرِه ... فَذَا كَـعْبَةُ الأَفْـكَارِ- هذَا حَطِيـمُها[٧٣]

ثَـلَاثَـةُ أَنْـهَارٍ جَـرَيْـنَ بِيَـمِّـه ... فَيَرْوِي عِطاشَ الخَلْقِ عَذبًا مُدِيْمُهَا:

أَلِيفُ "الفتاوَى"[٧٤] بَعدَ شَمْسِ ابْنِ قَيِّمٍ ... وَيَتْلوهُمَا "شَمْسٌ" فَمِسْـكٌ تَمِيْمُهَا

تَفِيـضُ نَمِيْـرًا سَلْسَبِيْـلًا وَصَافِـيًا ... وَتَفْهَـقُ مِـنْ شَهْدٍ طَهُـورٍ صَـمِيْمُها

هَنِيْـئًا لَهُم صَحْـبُ الكِـرَامِ وَقَبْلَهُمْ ... شَـهِيْـدٌ وَصِـدِّيْقٌ، نَبِـيٌّ خَـتِيْمُـهَا

تَبَصَّرْ، خَلِيـلِي، هَلْ تَـرَى مِن مَعَاهِدٍ ... بِأمِّ القُـرَى للشَّيْـخِ، وَهْـوَ حَمِيْـمُهَا؟

مَغَانِـي بِـلَادِ الحُرْمِ طُـرًّا شَوَاهِدٌ: ... فَبَيتٌ، حِرَا جِبْرِيْلَ، غَوْرٌ، قَصِيْمُها[٧٥]

وَتَـاقَتْ لَـه دُورُ الكتَـابِ، وَأَهْـلُهُ ... بِأَرْضِيْـنَ شَتَّى، الهِيْمَ[٧٦]، وَهْـوَ نَـهِيـمُها

وَلُـوعٌ "تُـراثَ الدِّينِ"؛ يَذْرَعُ قِـيْـعَةً ... خَفِيْـفًا جَـنَاحًـا، لَو تَنَاءَتْ تُخُومُها

قِفَـا، يَا أُصَيحَابِي، نُسَـائِلْ مَجَـالِسًا ... بِـ"بَـابِ بِـلَالٍ" بِالحَـرَامِ نُقِـيْمُـهَا[٧٧]

دَلَفْـتُ لَـهُ، يَومًـا هُنَاك، فَـأَبْرَقَـتْ ... ثُغُـورُمُحَـيَّاهُ، كَـأَنِّـيْ بَـسِيْـمُـهَا

وَكَانَ اللِّـقَا بِـكْرًا لِـمَولَى نَـكَارَةٍ[٧٨] ... إِلَى قِـمَّـةِ الأَعْـلَامِ، نُـورٌتَـرِيْمُها[٧٩]

---

(٧١) (لِسَانَ صِدْقٍ): من دعاء الأنبياء والرسل. (وَاجْعَلْ لِيْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ).

(٧٢) عماد الدين، هم: شـيخ الإسـلام ابن تيمية والإمام ابن القيم، والإمام محمد الأمين الشـنقيطي والإمام عبدالرحمن المعلمي وغيرهم من أئمة الدعوة ممن عمل الراحل على جمع وتدوين آثارهم العلمية.

(٧٣) الإمام: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، وهو كعبة الأفكار، والشيخ محمد عزير شمس بمثابة الحطيم بتلك الكعبة.

(٧٤) أليف الفتاوى: الشيخ عبدالرحمن بن قاسم، الذي جمع "فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية" رحمهما الله تعالى.

(٧٥) غور: غور تهامة.

(٧٦) الهيمَ: منصوب على الحالية، على غرار قول العرب: "جاءَ القومُ القِمَّةَ": أي جميعًا.

(٧٧) باب بلال: من أبواب الحرم المكي الشريف.

(٧٨) مولى نكارة: هو كاتب هذه السـطور، حيث كنت بمثابة نكرة عامة لديه قبل هذا اللقاء، وأظن أني في ذلك الوقت كنتُ طالبًا في المرحلة الثانوية بالجامعة الإسلامية بالمدينةالمنورة.

(٧٩) التريم: فوقُ.

فَـلَـمْ أَعْـرِفِ الأَعْــلَامَ هَدَّت تَـوَاضُـعًا ... سِوَاهُ، كَأَنْ جُـثَّـــتْ –تَـمَامًا- أَرُومُـهَـا
أَوِ البَاسِـقَاتِ القِنْوِ مَـالتْ إِلَـى الـثَّـرَى ... ثِـمَـارًا، وَمَـا هَـزَّتْ جُـذُوعًا مَـرُومُها[٨٠]
وَسُبحَانَ رَبِّـي! ظَـلَّ يَـهْـمِـي بِوَ ابِـلٍ ... وَيَمْـتَـاحُ أَنْـهَـارًا، رَحِيْـقًا طُمُومُها[٨١]
لَوَ انَّ أَضَـابِيْـرَ الكِـتَـابِ تَـجَسَّـدَتْ ... بِشَـخْـصٍ، لَـنَـادَتْ: إِنَّـمَـا هُوَ كَـلِيْـمُها[٨٢]
وَمَـا النَّـاسُ إِلَّا ثُـقَّـبًا فِـي غَـيَاهِـبٍ[٨٣] ... أَضَـاءَتْ لِلَمْـحٍ؛ كَـي يَصِـيْـدَ عَـدِيْـمُها
وَلَـيْـسَت حَـيَـاةُ المَـــرْءِ إِلَّا مُـعَـارَةً ... وَعَـمَّـا قَـلِيْـلٍ يَقْـتَـضِـيْـهَا كَـرِيْـمُـهَا
"وَنَجْـمٌ إِذَا يَـهْـوِي، وَبَـدْرٌ إِذَا تَـلَا" ... "وَشَمْسٌ بِهَا تُجلَى اللَّيَالِي عُتُومُهَا"...[٨٤]
تُـذَكِّـرُبِالأَسْـــلَافِ رُكْـــبًا مُـخَـلَّدًا ... سَبُوحًا بِأَفْلَاكٍ، تَعُـومُ جُـرُومُـهَا[٨٥]
أَيَـــا رَبَّـنَا، مَـا كَـانَ أَسْـرَعَ عَـــودَه! ... إِلَى مُسْـتَـقَـرٍّ مِـن جِـنَانٍ يَـرُومُـهَا!
فَغَذَّ الخُطَى، لَم تَقْضِ نَحْـبًا مَعَارِفٌ ... فَـهَامَـتْ، وَطَـالَ مَـا سَـقَـاهَـا نَـدِيْمُهَا!!
سَـتَذْرُو الـمَـآقِيْ العُرْبُ، والهِنْدُ مُـدَّةً ... فَـقَـدْ بَـانَ مِـنْهَا بَـرْقُـهَا وَهَـزِيْـمُـهَا[٨٦]
إِذَا زَارَهَـــمْ يَومًـا غَـدَوْا وَكَـأَنَّـهُـمْ ... جُـنُـــودُ سَـمَـاءٍ بَـيْـنَـهُنَّ حَـــزُومُـهَا[٨٧]
أَلَا يَـا مَنُـوْنًا! قَـدْ ظَـفِـرْتِ بِـدُرَّةٍ ... يُصِيْـبُ الـدَّرَارِيْ بِالكُسُـوفِ رَسِيْـمُـهَا![٨٨]
وَلَـــوْ أَنَّ أَمْـــرَاللهِ أَخَّـــرَ "نَسْـمَـةً" ... سَـعِـدْنَـا، وَلَـكِـنَّ القَـضَـاءَ يَحُـومُهَا[٨٩]
هَنِيْـئًا لَـهُ -إِنْ شَـاءَ رَبِّـيْ- مَـنِيَّـةٌ ... بِـأَزْمَـانِ يُـحْـيِـيْـهَا بِـذِكْـرٍ جَثُومُها[٩٠]

---

(٨٠) مَرُوم: هي مَريم عليها السـلام، وقد جاء رسـم هذه الاسـم المبارك في مختلف اللغات بعدة صـور، منها: مَرُوم، مَريَام، مَارِي. مَريَانا. مَاريانا، مَاريَا، مَروش، مَارينَا، ومِيرنا وغير ذلك.

(٨١) الطموم: غمر الماء.

(٨٢) الكليم: من الكِلْم، وهو الأرضة التي تقتات على ورق الكتاب، أيضًا: صديق الكتب.

(٨٣) الثُقّب: جمع ثاقب.

(٨٤) العتوم: الظلمة.

(٨٥) إشارة إلى قوله تعالى في سورة يس: (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ).

(٨٦) الهزيم: الرعد.

(٨٧) أي الحيزوم، اسم فرس بعض الملائكة ممن نزلوا يوم بدر.

(٨٨) المنون: الموت.

(٨٩) يحوم: يطوف ويحلق.

(٩٠) الجثوم: الثابت، إشارة إلى مجالسه الثابتة والمفتوحة أمام الطلاب والضيوف والزوار.

وَ أَبْـرِكْ بِـهِ؛ أَنْعِـمْ، زمَـانًا وَرَاحِـلًا ... مُحَـاطًـا بِـأَهْـلِ اللهِ، وَهْـوَ حَـمِـيْـمُهَا
رِتَــاعًا بِـرَوْضٍ قَـدْ حُـفِـفْـنَ مَــلَائِـكًا ... وَأَغْشَـاهُـمُ الـرِّضْـوَانَ أَمْـنًا رَحِـيْــمُهَا
سَــرَى أَعْـذَبُ الأَلْـحَـانِ يَشْـغَـفُ أَنْـفُسًا ... بِـحَـيَّ عَـلَى الصَّلَاةِ، حَـيَّ[٩١] مُـقِـيْـمُهَا
فَنَــوَى "العِشَــاءَ" غَـيرَأنَّ مَــلَائِــكًا ... سِـرَاعًا أَتَـوا؛ أَنْ فِـي السَّمَـاءِ نُـقِـيْـمُهَا
فَـإِنَّــا لِـرَبِّ الــعَـالَمِـيْـنَ، وَ إِنَّــنَا!! ... إِلَـيْـهِ لَـرَاجِـعُـوْنَ؛ يُـؤْسَـى هَـشِـيْـمُهَا[٩٢]
فَبُشْــرَى! لَهُ عِنْدَ المَلِيْكِ، بَشَـائِرًا ... نُــرَجِّـي وَجَـنَّـاتٍ، يُـخَـلَّـدُ نِـيْـمُـهَا[٩٣]
حَـقِيـقٌ بِـرُوحٍ فَــاضَت الـدَّهْـرَأَحْـرُفًـا ... يُـفَــاضُ عَلَيـهَا مِ الجِـنَـانِ نَـعِـيْـمُهَا
وَنَـفْسٌ يَشُـوبُ الـرَقَّ عَـرْفُ عُـلُومِـهَا ... يَطِيْبُ لَـهَـا الفِـرْدَوسُ، وَهْـوَ يَـرِيْـمُهَا[٩٤]
وَيُـمْـنَى تَـقِـيْسُ الخَـافِـقَـيْـنِ بِأَسْـطُرٍ ... عَلَيْها مِنَ اصْحَابِ اليَمِيْنِ سَـلَامُـهَا[٩٥]

(٩١) حَيَّ هنا: فعل ماض من الحياة، بمعنى الدعاء.
(٩٢) يُؤسى: يُعزَّى.
(٩٣) النيم: النعمة التامة.
(٩٤) يريم: المنزل والمأوى، وهو في أصل اللغة: الحصن.
(٩٥) قال تعالى: (فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ) (الواقعة - ٩١). مِنَ اصْحَابِ: بفتح النون وتسهيل الهمزة.